أوفرات الصوريّ رائد الديمقراطيّة
فيلسوف فذّ من مدينة صور

الدكتور يوسف الحوراني*

لعلّ اسمه الحقيقيّ هو عفره. ذكره فيلوستراتس في كتابه حياة السوفسطائيّين حين كلامه عن ديو البروزي، فقال عن هذا: «إنّه عاش في زمن كان أبولونيوس التياني وأوفرات الصوريّ يعلّمان فلسفتهما. وقد كان صديقًا لهما الاثنين، برغم أنّهما، في خلافهما الواحد مع الآخر، كانا يصلان إلى التطرّف الغريب عن المزاج الفلسفيّ»(١).

وفي موضع آخر من الكتاب، وعند الكتابة عن تيمقراط البنطيّ، قال عن هذا الأخير: «في البدء تفرّغ لدرس الكتابات الطبّيّة، وقد تضلّع جيّدًا من نظريّات هيبوقراطس وديمقريطس. ولكن، عندما سمع مرّة أوفرات الصوريّ، انصرف جادًّا نحو هذا النوع من الفلسفة»(٢).

وفي مراجعة للموسوعات المختصّة بالشخصيّات الكلاسيكيّة، لم أجد في معظمها ذكرًا لهذا الفيلسوف، سوى أنّ الموسوعة البريطانيّة تذكر أنّه عاش طويلاً، وكان صديقًا للأمبراطور الرومانيّ هادريانس في أواخر عمره. ولمّا مرض وثقل مرضه، استأذن الأمبراطور لكي يسمح له بالموت. وشرب السمّ ومات. وكان مذهبه الفلسفيّ رواقيًّا. وموته بهذه الطريقة يُثبت التزامه بالمبدأ الرواقيّ

(*) أستاذ في الجامعة اللبنانيّة. له مؤلّفات في الحضارات الشرقيّة.

(١) Philostratus and Eunapius, *The Lives of the Sophists*, trans. by Wilmer Cave Wright, ed. Harvard University Press, 1961, p. 17.

(٢) *The Lives of the Sophists*, p. 177

الذي اشتهر أصحابه بمثل هذه المواقف، وفق عقيدة تقول: إنّ المرء يستطيع أن يخرج من الحياة كما يخرج من مكان مليء بالدخان.

تحدّث عنه الأمبراطور الفيلسوف ماركس أوريليوس في تأمّلاته، ذاكرًا إيّاه كمَثَل لمدرسة فلسفيّة[1]. وتكمن أهمّيّة ملاحظة هذا الفيلسوف في كونه عاش بعد أوفرات بما يقارب مئة عام.

وذكره الفيلسوف الرواقيّ إپيكتيتس كمَثَل على النبوغ، حين الحديث عن القيمة المعنويّة للفيلسوف فقال: «وهكذا فإنّ بعض الناس يكون قد رأى فيلسوفًا، ويكون قد سمع مَن يقول: «يتكلّم جيّدًا مثل أوفرات (وبالتأكيد مَن يكون باستطاعته الكلام مثل ذلك). يريدون عندئذٍ أن يكونوا فلاسفة.

«لكن عليك، حين تغدو فيلسوفًا، أن تفكّر هل تستطيع الاستمرار في الأكل والشرب على الطريقة ذاتها، وأن تمتلك الرغبات والكوابح ذاتها»[2].

لقد كان أپيكتيتس معاصرًا لأوفرات، فوصفه هكذا دون غيرة منه أو شعور بالمنافسة، كما بعد ما يقارب مئة وخمسين عامًا نقرأ ملاحظة لفيلسوف كنسيّ هو أوريجنيس يكتبها عند نقده للفيلسوف الفيثاغوريّ أبولونيوس الذي حاول أتباعه تشبيهه بالمسيح، فيقول في فصل بعنوان «مملكة الشيطان»: «حتّى إنّ أوفرات الشهير خُدع بسحر أبولونيوس»[3].

وبعد مئتيّ عام تقريبًا من زمن أوفرات، نقرأ تحليلاً لمؤرّخ الكنيسة الأول أوسابيوس البامفيلي، يحاول فيه كشف زيف أبولونيوس التياني لتابعيه، فيذكر أنّ هذا الأخير رشّح أوفرات ليكون مستشارًا للأمبراطور فسباسيانس، واصفًا إيّاه بالحكمة والإخلاص والجودة، وذلك قبل الخلاف معه وتغيير موقفه منه. ولو كان أبولونيوس يعرف الغيب حقًّا، كما يدّعي أتباعه، لكان عرف أنّ أوفرات سيتحوّل إلى عدوّ لدود له، ولما كان مدحه في مجلس الأمبراطور. ثمّ

(١) Marc-Aurèle, *Pensées*, trad. Paul Lemaire, éd. Hatier, 1955, chap. 10:31.

(٢) Epictète, *Manuel*, trad. Paul Lemaire, éd. Hatier, Paris, 1959, no 35

(٣) Origène, *Contre Celse*, Tome III, 6:41,13.

يتبع أوسابيوس فيقول «ليس لديَّ رغبة، خلال هذا النقاش، في التشكي من أبولونيوس لكونه يهاجم أوفرات الذي كان الفيلسوف الأكثر تميزًا بين رجال عصره، فمديحه لا يزال على شفاه طلاّب الفلسفة. فأيُّ إنسان يعمد إلى مثل ذلك يستطيع أخذه مثلاً بارزًا على الافتراء والاغتياب، وهو حجّة ضدّ أبولونيوس، لأنّ أوفرات، لو كان حقًّا، بحسب اعتقادهم، قائدًا في جماع الفلسفة، لكان من الأفضل أن ينسب إليه الكره للخداع حين استنكاره لأعمال خصمه. ومن الأنسب إلصاق سمعة سيّئة بهذا الأخير لأنّ أبولونيوس كان يهاجمه لتعقّبه إيّاه - تلك هي الشكوى - وهي حياة غير مرضيّة تمامًا لفيلسوف»[1].

وهنا نلاحظ أنّ أوسابيوس لم يستنكر المديح الذي كان في زمنه يُقال لهذا الفيلسوف، ابن صور، برغم استخفافه المعروف بكلّ مَن هو على غير مذهبه. وكلّ ما أخذه عليه هو سكوته عن أبولونيوس التياني ودَجَله. ولكن اتّهامات أبولونيوس له تُثبت أنّه لم يكن ساكتًا عنه كما سنرى آنفًا.

وبعد هذه الملاحظات الرصينة التي تؤكّد علوّ المنزلة التي بلغها أوفرات الصوريّ في زمنه، وعمق تأثيره في سامعيه وقرّائه، نصل إلى بعض الملامح الشخصيّة عنه، كما وصفها رجل قلم وسياسة من كبار موظّفي الدولة الرومانيّة. وهذا الموظّف كان بلينس، الأصغر وهو كان من بيت علم وثقافة، إذ هو ابن أخي العالم الرومانيّ الموسوعيّ بلينس الأكبر. وكان صديقًا للفيلسوف ويزوره في منزله.

كتب بلينس رسالة عن أوفرات بعث بها إلى صديق له: يذكر هذا الفيلسوف كمَثَل على ازدهار الثقافة في سورية في ظلّ الحكم الرومانيّ. قال:

«إذا كانت روما قد أفسحت المجال للفنون الحرّة، فهذه أيضًا ازدهرت هناك اليوم. وبين العديد من الأشخاص البارزين الذين عرفتهم كمثال على هذا الازدهار، لا أحتاج إلى ذكر غير الفيلسوف أوفرات. فلمّا كنتُ شابًّا أوّدّي

(1) Philostratus, *The Life of Apollonius*, Tome II (The Treatise of Eusebius), 29. trans. by F.C. Conybeare, ed. LOEB Classical Library, 1960, London.

خدمتي العسكريّة في سورية، عرفته جيّدًا، وزرت منزله وبذلت جهدًا لكسب ودّه، مع أنّ ذلك لم يكن ضروريًا، لكونه يسهل الوصول إليه دائمًا، ومستعدًا دائمًا للمبادرة، وهو مفعم باللطف والدماثة اللذين يعلّمهما. وإنّي أودّ فقط أن أحقّق الآمال التي عقدها عليّ، في ذلك الوقت، بالطريقة نفسها التي كنتُ أشعر أنّه يُنمّي فضائله بها، أو، بالأحرى، قد يكون تزايد إعجابي بها الآن هو ما جعلني أقدّرها تقديرًا أفضل. وحتّى إنّي لا أستطيع الادّعاء أنّي أعطيها قدرها حتّى الآن، فإذا كان المطلوب رسّامًا ليحكم على الرسم، ونحّاتًا ليحكم على تمثال، فإنّ المطلوب هكذا هو فيلسوف ليفهم فهمًا صحيحًا فيلسوفًا آخر. ولكن من الواضح، بحكمي المحدود، أنّ أوفرات يتمتّع بمواهب متعدّدة تبدو جذّابة حتّى لأولئك الأشخاص الذين لا يتمتّعون بغير ثقافة متوسّطة. فمحاوراته مهذّبة، وإدراكه عميق، وألفاظه منتقاة. وغالبًا ما يكون له سموّ أفلاطون وثراؤه. وهو يتحدّث ببداهة في عدّة مواضيع، بسحر خاصّ، يستطيع به أسر المستمع المعارض وإقناعه.

«إنّه، فوق ذلك، طويل القامة، متميّز المظهر، طويل الشعر، بلحية بيضاء، منتشرة. ومع أنّ هذه صفات طبيعيّة، لا أهمّيّة لها، فإنّها تساعد على مضاعفة هيبته. ثيابه نظيفة دائمًا. وهيئته الرصينة لا يبدو عليها أيُّ مظهر للعبوس. وهكذا فإنّ الانطباع الأوّل لك عند مقابلته يكون الإعجاب به وليس النفور منه.

«إنّه يعيش حياة طاهرة تمامًا، بينما يبقى بكامل إنسانيّته. وهو يهاجم السيّئات، لا الأفراد، ويهدف إلى إصلاح المنحرفين، لا إلى معاقبتهم. ويمكنك متابعة تعاليمه بإصغاء ونشوة يجعلانك تحرص على أن يتابع الحديث، حتّى وبعد أن تقتنع.

«له ثلاثة أولاد: ولدان منهم أنشأهما بعناية عظيمة. ووالد زوجته هو بومبيوس جوليانس، ذو مركز بارز جدًّا. وهو من الأعيان القادة. ورصيده أنّه، من بين المعطيات الكثيرة الممتازة لديه، اختار صهرًا ذا سلطة بعلمه أكبر من سلطة أيّة وظيفة رسميّة.

«ولا أدري لماذا أقول الكثير حول إنسان لم أكن حرًّا للتمتّع بصحبته، إلاّ

إذا كان ذلك نعمة على بعض [illegible] وقتي الوحيد هو ساعات الرسميّة، وهي هنّة. ولكن ليس هناك ما هو أتعب منها، حيث أجلس على المقعد، أحيب على المعترض، وأجري المحاسبات، وأكتب ما لا يُحصى من الرسائل غير الأدبيّة. وعندما تسنح لي الفرصة، أتشكّى من هذه الواجبات لأوفرات الذي يعزّيني بقوله: «إنّ أيّ إنسان يقوم بوظيفة عامّة، ويترأّس المحاكمات، ويصدر الأحكام، وينشر العدالة ويوجّهها، إنّما بذلك يطبّق عمليًّا ما يعلّمه الفيلسوف نظريًّا. وتكون له مشاركة في الحياة الفلسفيّة، بل مشاركته هي في أنبل قسم منها فعليًّا». ولكنّه في أمر واحد لم يستطع إقناعي، وهو أن يكون ذلك أفضل من تمضية الأيّام مستمعًا إليه لأتعلّم منه.

«وأخيرًا أدعوك إلى أن تدّعه يأخذ بيدك ليهذّبك في المرّة القادمة، عندما تكون في المدينة. فأنت لديك وقت لهذا، وأتوقّع أن يعجّل هذا الموضوع بمجيئك. وخلافًا للكثيرين فإنّي لا أُنكر على الآخرين الفوائد التي لم أستطع الحصول عليها أنا. بل، بالعكس، أشعر بشعور لذيذ حين أرى أصدقائي يتمتّعون بالكثير الذي أكون قد حُرمت منه»[1].

في هذه الرسالة، تقرأ وصفًا لفيلسوف رواقيّ أصيل من الذين كانوا يعلّمون أهمّيّة الواجب والحرّيّة الإنسانيّة، وطرائق الحكم السليم، والتربية الجيّدة للأبناء، والحياة بتواضع وفق مبادئ الطبيعة. وهذه الفلسفة، على تعدُّد مَن شاركوا في وصفها وتوسيعها، تكاد تكون موحّدة الوجْه لدى الجميع، حتّى وجدنا أنّ ديوجينس لايرتيوس، الذي كتب عن أركانها حوالى القرن الثالث للميلاد، يدرس ويحلّل مقولاتهم وآرائهم خلال دراسته لحياة زينون الكيتيومي الفينيقيّ الأصل، مؤسّس المذهب الرواقيّ[2]. وسنرى أنّ أوفرات كان يعلّم فلسفة كريزيبس. وهذا كان أبرز قادة المدرسة، بعد زينون، وأكثرهم إنتاجًا.

لقد ضاعت آثار أوفرات المكتوبة، رغم أنّها، بحسب أوسابيوس، كانت بين أيدي طلاّب الفلسفة في زمنه، أي بعد متيْ عام من بروزه. ولكن ما

(1) Pliny (the Younger), *The Letters*, 1:10, trans. by Betty Radice, ed. Penguin, 1963. (2) Diogène Laërce, Livre 7, trad. R. Genaille, 2 vol. ed. Garnier-Flammarion, Paris, 1969.

وصلنا عنه يكشف عن منحاه الفكريّ، مع العلم بأنّ الذي كتب عنه أو نشر، وهو فيلوستراتس، كان يكتب أو ينشر لإعلاء شأن منافسه وعدوّه أبولونيوس التياني. ولهذا علينا تلقّي أقوال الكاتب بحذر واعتبار لخلفيّاتها.

كتب فيلوستراتس كتابه عن حياة أبولونيوس التياني بطلب من الأمبراطورة الرومانيّة جوليا دُمْنا زوجة الأمبراطور سبتيمس ساويرس، التي وضعت بين أيديه المذكّرات والرسائل المتعلّقة بالموضوع. حدث ذلك بعد ما يقارب المئة عام من وفاة أبولونيوس. وقد ذكر المؤلّف بعض الخطابات والرسائل والوقائع المتعلّقة بالفيلسوف أوفرات لأهمّيّتها في سيرة حياة خصمه أبولونيوس. ومن هذه نجمع معالم شخصيّة هذا الفيلسوف، لأنّها المرجع الوحيد الباقي لنا عنه.

يرد ذكر أوفرات في كتاب فيلوستراتس هذا للمرّة الأولى في سياق الردّ على الذين اتّهموا أبولونيوس بالانجراف وراء اللذّات الجنسيّة، فينفي ذلك نفيًا قاطعًا عن رجله، ويقول: «حتّى إنّ أوفرات لم يتّهم مطلقًا الحكيم بالقضايا الجنسيّة، مع أنّه يطعن به في أمور أخرى، ويؤلّف مقالات كاذبة ضدّه، كما سنرى حين الحديث عنه آنفًا»[1].

وحيث كان أبولونيوس يأخذ على أوفرات تطلّبه وطمعه الماديّ، فإنّه قال له مرّة، وهو يلومه على ذلك: «دعنا، على الأقلّ، نحترم فراأوتس الهنديّ»[2]. وفراأوتس هذا هو ملك هنديّ متواضع متصوّف، كان قد قابله أبولونيوس خلال جولته في الهند. وهذه الملاحظة من الكاتب فيلوستراتس تُثبت أن كانت لديه رسائل وملاحظات مكتوبة يرجع إليها. كما هي، في الوقت ذاته، تكشف أنّ أوفرات كان برفقة أبولونيوس في هذه الجولة هو وأتباعه. وذلك قبل خلافهما.

عند زيارة فسباسيانس لمصر، بعد أن نادى به الجيش الرومانيّ في الإسكندريّة أمبراطورًا سنة ٦٩م، كان أوفرات في الإسكندريّة، فدعا المصريّين للترحيب به. واشترك الفلاسفة، على اختلاف مذاهبهم في حفلة استقبال

(١) Philostratus, *The Life of Apollonius*, Tome I, 1:13.

(٢) *The Life of Apollonius*, Tome I, 2:26.

الأمبراطور عند أبواب المدينة. يحدو أن الأمبراطور كان يثق بأبولونيوس ويكاتبه، طالبًا نصائحه، قبل وصوله إلى العرش. فسأل عنه، وزاره في المعبد، وطلب إليه أن يدلّه على مستشارين ومرشدين، فأشار هذا إلى الفيلسوفَيْن ديون وأوفرات منوِّهًا بهما. ثمّ بعد أيّام، زار أبولونيوس الأمبراطور في مقرّ حكمه في الإسكندريّة، فوجد أوفرات وديون عند الباب، فاستأذن الأمبراطور لهما بالدخول عليه للاشتراك في المحادثات، لكونهما حكيمَيْن جيِّدَيْن[1].

كانت هذه أولى الإشارات المكتوبة للقاء بين أوفرات وأبولونيوس. وقد حدث اللقاء الذي نشأ عنه خلافهما الشهير بحضور الأمبراطور فسباسيانس. فهذا الأخير أخذ يعرض أمامهم ما جرى من أحداث سياسيّة لروما في عهد مَن سبقوه من أباطرة، بدءًا من طيباريوس. ثمّ غايوس فقلوديوس، وأخيرًا نيرون، مستعرضًا ما حدث من سوء إدارة وسقطات واستبداد. وقد طلب نصحهم وإرشادهم لتقويم الحكم في روما[2]. تحدّث في البدء أبولونيوس مطوّلاً إجابة إلى رغبة الأمبراطور، في حين بقي أوفرات صامتًا يستمع. ولكنّه أخيرًا لم يتمالك نفسه، فرفع صوته مقاطعًا أبولونيوس بالخطاب التالي، الذي نقله لنا فيلوستراتس خلال أخبار أبولونيوس. قال:

«علينا أن لا نبالغ في تقدير اندفاع الناس، كما علينا أن لا نسمح لأنفسنا بالانجراف بعيدًا ضدّ ما نراه صوابًا، بواسطة أناس لا كرابيح لأطماعهم. وإذا كنّا حقًّا متمسِّكين بالحكمة، فعلينا أن ندعوهم إلى وقائع الحياة القاسية. هنا هي السياسة، التي علينا أن نتداول بها بهدوء، لهذه المهمّة. ولك منّا أن نشرح طريقة تنفيذها، قبل أن تعرف، هل المقاييس الخاضعة للبحث مرغوب فيها.

«ومن جهتي، أوافق تمامًا على عزل فيتيليوس، الذي أعرفه سكّيرًا فظًّا، يمارس كلّ أنواع التهتُّك. لكن، ومع معرفتي بك، كرجل ذي نبل خلقيّ بارز، أربأ بك أن تأخذ على عاتقك تقويم فيتيليوس بدون أن تضع أوّلاً، مثالاً لك أنت. ولا أظنُّك بحاجة إلى مَن يرشدك إلى الاتّهامات الخطيرة التي توجَّه للسلطة كما هي، فأنت بذاتك قد وصفتها. لكن ما أردتك أن تعترف به هو أنّ

(١) *The Life of Apollonius*, Tome I, 5:27,28.
(٢) *The Life of Apollonius*, Tome I, 5:32.

الشبّان، عندما يقفزون إلى صهوة التسلّط، لا يعملون إلاّ ما يُرضي غرائزهم، لأنّ القيام بدور الطاغية هو أمر طبيعيّ للشبّان، كالخمر والنساء، ولا يمكننا لوم شابّ إذا ما طغى في الحكم، إلاّ إذا تابع دوره بالظهور كقاتل وفظّ وفاسق. وبالمقابل، عندما يتحوّل أحد المسنّين إلى طاغية، فإنّ أوّل ما نلومه عليه هو كونه كان يغذّي هذا الطمع في نفسه. ولا فائدة من إظهار ذاته مثالاً للإنسانيّة والاعتدال، لأنّ هذه الصفات تعود إلى سنّه ونضجه وخبرته، لا إلى جوهره. والناس يعتقدون عندئذٍ أنّه كان ينمّي أطماعه منذ وقت طويل، منذ سنّ المراهقة. ولكنّه كان فاشلاً في تحقيق تلك الأطماع، ومثل هذا الفشل يُنسب قسم منه إلى الحظّ السيّئ، وقسم آخر إلى الخمول. وأعني بذلك أنّه، كما يُظنّ، كان يتخلّى عن طموحه إلى العضلات، لأنّه لم يكن واثقًا من نجمه، أو أنّه كان يقعد جانبًا ويفسح الطريق لآخر تداعبه الأمنية ذاتها ويكون متفوّقًا عليه بالرجولة التي يخافها هو.

«أمّا من جهة حساب الحظّ السيّئ فيمكنني رفضه، وأمّا ما يختصّ بالخمول، فكيف يمكنك تجنّبه؟ كيف يمكن لمن يخاف من «نيرون» أن ينجو من اللوم. وهو أكثر المتسلّطين خمولاً وجبنًا؟ أنظر إلى الثورة التي خطّط لها فاندكس ضدّه. لقد كنتَ بالتأكيد رجل الساعة والقائد الطبيعيّ لها، وليس هوا لأنّ لديك جيشًا يدعمك، والقوّات التي كنت قائدها في محاربة اليهود، ألم يكن من الأنسب لو استُعملت لمعاقبة نيرون؟ لأنّ اليهود كانوا منذ زمن طويل في ثورة، لا ضدّ الرومان، فقط، بل ضدّ الإنسانيّة، وإنّ جماعة من الناس جعلت لنفسها حياة منعزلة، غير قابلة للاستقرار، بحيث لا يمكنها المشاركة مع باقي الجنس البشريّ في أفراح المائدة، أو الانضمام للناس في تقدماتهم، أو صلواتهم، أو قرابينهم، هم منفصلون عنّا بمسافة عظيمة أكبر من تلك التي تفصلنا عن سوسا أو بكترا أو الأراضي الهنديّة الأكثر بعدًا. فأيُّ معنى عندئذٍ أو مبرّر نجد في معاقبتهم، لأنّهم ثاروا علينا، في حين يكون من الأفضل عدم ضمّهم إلينا؟

«أما بخصوص نيرون، فمَن الذي لم يكن يتمنّى أن يذبح بيده رجلاً يجلس ليغنّي بين جثث ضحاياه، وهو ثمل بالدم الإنسانيّ؟ أعترف بأنّي كنتُ

احسّ بوخز في أذني عندما كان يأتي أيُّ رسول من هناك حاملاً أخباركم، ويقول لنا كيف أنّكم، في معركة واحدة، ذبحتم ثلاثين ألفًا من اليهود، وفي الثانية خمسين ألفًا. وفي هذه الحالات كنتُ آخذ الرسول على حدة وأسأله بهدوء: ولكن ماذا عن الرجل العظيم؟ ألم يرتفع إلى ما هو أعلى من هذه الأشياء؟ وبعدئذٍ اكتشفتَ أنتَ أن فيتيليوس هو صورة ممسوخة عن نيرون وتحوّلت ضدّه، فتابع السياسة التي اعتنقتها، لأنها سياسة نبيلة أيضًا. وما عليك إلاّ أن تجعل تتمّتها كذلك.

«إنّك تعرف ما أعزُّ المؤسّسات الشعبيّة على الرومان، وكيف أنَّ جميع فتوحاتهم تقريبًا قد كسبوها في ظلّ السياسة الحرّة. فضع إذن نهاية للتسلُّط الذي ذكرتَ تكرارًا سجلّه السيّئ، وامنح الرومان حكومة شعبيّة، تمنح نفسك مجد تدشين مملكة للحرّيّة لهم»[1].

وهكذا نجد أوفرات، بحكم فلسفته الرواقيّة الأصيلة، يستنكر سفك الدماء ويعتبره حطًّا من قيمة القادة الكبار. ويستعمل لباقة وحكمة فذّة في مقدّمة خطابه ليبرِّر نصيحته للأمبراطور بأن يتخلّى عن العرش ويعتبر هذا التخلّي، لا تنازلاً، بل سموًّا في الخلق، ووفاء للشعب الرومانيّ الذي يقوده، والذي يجب أن يختار حاكمه بأسلوب ديمقراطيّ انتخابيّ بدل أن يُفرض عليه هذا الحاكم بفعل الوراثة. أمّا موضوع الحكم ونظام المجتمع فقد كان من هواجس الرواقيّين. وندر أن نجد بينهم مَن لا تُنسَب إليه تآليف في القوانين والأخلاق وتنظيم العائلة والمجتمع. حتّى إنّنا نقرأ ملاحظة لدى ديوجينس لايرتيوس تقول بأنَّ كريزيبس، وهو مَن يوصف بالمذهب الأرثوذكسيّ في الفلسفة الرواقيّة، أدلى برأيه مادحًا كتاب زينون المؤسِّس، المُعنوَن «الجمهوريّة» خلال كتاب له يحمل العنوان ذاته «الجمهوريّة»[2]. وقد كان أوفرات يعلِّم كتب ومحاضرات كريزيبس هذا، كما سنرى لاحقًا في رسالة لأبولونيوس.

وحين العودة إلى جرأة موقف أوفرات في حضرة أمبراطور عسكريّ ثمل من دماء الحروب، تجد هذه الجرأة غير عاديّة، ولا يمكن أن يقوم بها إلاّ

(1) *The Life of Apollonius*, Tome I, 5:33.
(2) Diogène Laërce, p. 62, livre 7.

شخص فذّ يتمتّع برصيد معنويّ عظيم، هو عين الرصيد الذي كان يتمتّع به أوفرات في زمنه، كما ذكر ذلك الذين استشهدوا به من الفلاسفة.

ونجد صدى خطاب أوفرات بعد ذلك بما يقارب عشرين عامًا لدى المؤرِّخ الرومانيّ تاقيطس، حين يتخيَّل أنّ غالبا، الأمبراطور الذي حكم الرومان سبعة أشهر فقط، بعد نيرون، وجّه رسالة إلى ابنه تتضمّن أفكار هذا الخطاب في نصائحه له. وفي مطلع الرسالة يقول تاقيطس: «يبدو أنّ غالبا أخذ بيد بيزو (ابنه بالتبنّي) وحادثه بعبارات يمكن تفضيلها بما يلي[1]:

وقد كان عمر المؤرِّخ تاقيطس أربعة عشر عامًا فقط، عندما ألقى أوفرات خطابه الموجّه إلى فسباسيانس سنة ٦٩م. ويبدو أنّ حبّ تاقيطس للنظام الحرّ، كما اشتهر عنه، جعله يولي كلام أوفرات اهتمامًا توجيهيًّا نحو هذا النظام ويضعه كنصائح للمرشّحين للقيادة.

* * *

بينما كان أوفرات يلقي خطابه الهامّ هذا، كان رفيقه الفيلسوف ديون يُظهر إعجابه وتأييده له، إمّا بحركات أو بكلمات الاستحسان. وقد علّق على خطاب أوفرات، مرحّبًا بفكرة الديمقراطيّة، مع أنّه يعتبرها أقلّ قيمة من الحكم الارستقراطيّ، لكنّها، في رأي الرجال المعتدلين، تكون أفضل من حكم الاستبداد أو الأوليغارخيّة. وقد هبّ أبولونيوس لمعارضته، وشجّع فسباسيانس على إعلان نفسه أمبراطورًا، مشبّهًا إيّاه ببطل في الألعاب الأولمبيّة فاز وربح الجائزة، وجاء مَن يمنعه من إعلان فوزه وربحه. ويبرّر ضرورة ارتقاء فسباسيانس العرش الرومانيّ بكونه أبًا لولدين هما قائدان في الجيش، وسيجلب على نفسه عداءهما الحاقد، إن لم يورثهما الأمبراطوريّة. وبذلك يصبح في مواجهة عدائيّة مع عائلته، كما قال.

ثمّ وجّه أبولونيوس كلامه إلى أوفرات وديون قائلاً: «إنّكما لم تساعدا، كما قيل لنا، على إطاحة نيرون، ولا أنا فعلت ذلك. ولكن أحدًا لم يلمنا على

(١) Tacitus, *The Histories*, trans. by Kenneth Wellesley, Penguin Classics, 1964, Book 1:15, 16.

ذلك. كما لم يتّهما أحد بالخيانة. فالفلسفة قد دُمّرت تحت حكم استبدادي، لكن فاتهم بعد ضربة واحدة لأسس الحرّية»[1].

وافق الأمبراطور أبولونيوس على آرائه ووعده باتّباع كلّ ما يقوله له عن واجبات الحاكم، وعن فرائضه نحو الآلهة. فتابع أبولونيوس نصائحه الأخلاقيّة بتشجيع منه، وقد شعر أوفرات بالحرج في موقفه المبدئيّ من الحكم. وعندئذٍ أعلن موافقته على النصائح بدل معارضتها، وقال معقّبًا: «يا صاحب الجلالة، كما علينا أن ندعوك، من الآن وصاعدًا، ليس لي أيّ مكسب في معارضة مثل هذه التعاليم، لكن هناك أمرًا بقي عليّ أن أقوله، وهو، أنّك عندما توافق وتشجّع هذه الفلسفة، التي تتماشى مع الطبيعة، لا يكون لك أيّ شأن في التعامل بعلاقات سرّيّة مع الآلهة، لأنّنا سرعان ما نُنفخ بعدد من السخافات التي تنسبها هذه الفلسفة الفارغة إلى العناية الإلٰهيّة»[2].

وكان أوفرات يوجّه أنظاره نحو أبولونيوس، فتجاهله هذا وخرج مع رفاقه من الاجتماع، وعندئذٍ رفع الأمبراطور الجلسة مع الفلاسفة ودعا أصحاب القضايا إلى الدخول عليه.

هذه هي القضيّة التي فجّرت الخلاف بين الفيلسوفَيْن. وفي رأي الكاتب فيلوستراتس، لم يُظهر الأمبراطور أيّ استحسان لآراء أوفرات. ولكن، في الوقت ذاته، لم يطرده من مجلسه. وعندما عرض الأمبراطور، في اجتماع تالٍ، أن يقدّم هدايا لأبولونيوس، اعتذر هذا وأشار إلى أوفرات ورفاقه قائلاً: «أرجو منك أن تستمع إلى هؤلاء الرجال، فهم، كما يبدو، يريدون شيئًا». فسألهم الأمبراطور أن يطلبوا بجرأة ما يريدون. واستمع إلى ديون الذي طالب بتسريح زميل له من الجنديّة. ثمّ توجّه إلى أوفرات، فقدّم هذا له رسالة مكتوبة ضمّنها مطالبه، وكانت نيّته أن يدرسها الأمبراطور بصمت. ولكن هذا أراد أن يعرّضه للنقد، فقرأ الرسالة بصوت عالٍ على مسامع الحاضرين. وكانت تتضمّن مطالب متنوّعة، بعضها له شخصيًّا، والبعض الآخر من أجل الآخرين. والهدايا المطلوبة كان بعضها نقدًا ماليًّا، والبعض الآخر سندات.

(1) Philostratus, *the Life of Apollonius*, Tome I, 5:35.
(2) *The Life of Apollonius*, Tomo I, 5:37.

وعلّق أبولونيوس على ذلك قائلاً لأوفرات: «إذن، لم تمنعك نيّتك بأن تطلب إلى ملك كلّ هذه المطالب من أن تقدّم له تلك النصيحة بخصوص الديمقراطيّة!». وكانت لهجته ساخرة[1].

وبعد رحيل الأمبراطور عن الإسكندريّة، هاجم واحدهم الآخر. وقد لجأ أوفرات إلى أقذع الشتائم في فورة غضبه، فقابلها أبولونيوس بروح فلسفيّة، مستنكرًا إيّاها فقط، كما يقول الكاتب. وكانت مآخذه على أوفرات في كون سلوكه يُسيء إلى حشمة الفلسفة. ويذكر أنّ أبولونيوس وجّه له عددًا من الرسائل بهذا الخصوص، يعتذر هو عن نشرها، لأنّه يكتب أخبار أبولونيوس ليُعلنها لمن يجهلها. كما يذكر لنا أنّ أوفرات هزّ مرّة عصًا في يده بوجه خصمه. ولكنّه لم يضربه بها. وهو يعلّل ذلك بأنّه أراد تهدئة غضبه، وليس من شيمته أن يتحدّث بالسوء عنه، كما يقول.

وبعد هذه الوقائع، سافر أبولونيوس، متّجهًا نحو صعيد مصر ونحو أثيوبيا لزيارة الحكماء العراة. وترك خلفه أحد تابعيه لمراقبة أوفرات. وكان هذا التابع يُدعى منيبوس.

ويذكر فيلوستراتس أنّ أوفرات أرسل هو أيضًا أحد تابعيه ليسبق أبولونيوس ويعلن لحكماء صعيد مصر وأثيوبيا غاية خصمه من رحلته. وهي المقارنة بينهم وبين حكماء الهند، وليشرح لهم ما يمكن أن يُحرجهم به من أسئلة وادّعاءات. وكان اسم هذا التابع تراسيبولس، من بلدة نقراطس وقد رفض الحكماء بعد ذلك استقبال أبولونيوس في البدء، معتذرين بانشغالهم. وكانوا قد استقبلوا تابع أوفرات بحرارة، عندما عرفوا أنّه تلميذه. وهذا ما يُظهر أنّ شهرة أوفرات كانت منتشرة هناك.

وبعد قبول الحكماء العراة استقبال أبولونيوس، يذكر هذا في حديث مع أحدهم، ويُدعى ثسيزيون، أنّ الهنود لم يكونوا يستمعون إلى أقوال أوفرات عنه، لأنّهم موهوبون بمعرفة الغيب. وقوله هذا يؤكّد أنّ أوفرات كان قد رافقه في رحلة الهند. ثمّ يتابع قائلاً: «ليس لي أيّ نزاع شخصيّ مع أوفرات، وإنّما

(1) *The Life of Apollonius*, Tome I, 5:38.

حاولت إدخله على حبّ المال وشغفه. من هنا إلى تقييم كلّ شيء بما يمكنه أن يعمله به. ولكنّي وجدت نصيحتي غير مفيدة له، وفي حالة كحالته غير عمليّة، بل هو وجد فيها توبيخًا ضمنيًا، ولم يترك أيّة فرصة إلاّ وتآمر خلافًا عليّ... إنّ السماء تمنح إنسانًا بهذه الميول من الوصول إلى السلطة أو الرئاسة على ولاية شعبيّة، لأنّه حتّى الديمقراطيّة بيديّه تغدو طغيانًا، بل ولن يكون قاضيًا، لأنّه بالتأكيد لن يرى الحقّ أبدًا، ولن يكون قبطانًا لمركب لأنّ البحّارة سيتمرّدون عندئذٍ، ولا قائدًا لجيش، لأنّ ذلك يكون من حظّ الخصم. ولا تترك واحدًا له مثل صفاته يمارس الفلسفة، لأنّه لا يعتبر الحقيقة في تكوين آرائه...».

وبعد استمرار أبولونيوس في مهاجمة أوفرات قاطعه ثيرزيون، محاولاً تهدئته، وقال: «كفى عن أوفرات وأعماله الصغيرة العقل، ونحن على استعداد تامّ لمصالحتك معه، لأنّنا نعتبر أنّ من خواصّ عمل الحكيم أن يكون حكمًا في النزاعات بين الحكماء الآخرين»[1].

إتّسع الخلاف بين أوفرات وأبولونيوس، بعد عودة الأخير من أثيوبيا، وانتقل ذلك إلى أتباعهم من المريدين مثل منيس ونيلس. ويبدو أنّ أوفرات غدا مقرّبًا من الأمبراطور دوميتيانس، فأثار ذلك نقمة أبولونيوس عليه، وراح يتّهمه بالوشاية به لإدخاله السجن، حتّى غدا كابوسًا مرافقًا له، ينسب إليه كلّ ما يحدث له من سوء. وكان يستشهد بما حدث له في مصر وأثيوبيا عن يده. وكان هذا يشير إلى علوّ مركز أوفرات لدى الأباطرة ورجال الدولة الرومان، وعلى قدرته على الاستمرار في هذا المركز بالرغم من تغيُّر هؤلاء، وتقلُّب أهوائهم نحو الفلسفة والفلاسفة.

أمر دوميتيانس بتوقيف أبولونيوس وإرساله إليه من آسيا. فاتّهم هذا أوفرات بإرسال تابع له يتجسّس عليه في بلاد اليونان. وكانت مع هذا التابع رسالة سجّل فيها الأحاديث التي تحدّث بها هناك، وهي تدينه. إتّهم أوفرات بدفع رشوة لإقامة الدعوى عليه بواسطة التابع الذي شكاه. وقد أُجبر أبولونيوس على الدخول إلى قاعة المحكمة عاريًا، خوفًا من حمله معه أدوات السحر والشعوذة التي كان متّهمًا بها. وقد حضر الأمبراطور المحاكمة شخصيًا

(1) *The Life of Apollonius*, Tome II, 6:13.

واتّهمه بادّعاء الألوهة وبالشعوذة [1]. وخلال دفاع أبولونيوس عن نفسه، أبرز رسالة من الأمبراطور فسباسيانس، والد دوميتيانس، يمدحه فيها لالتزامه الفقر. وادّعى أنّ الأمبراطور الوالد كان يقارن بينه وبين أوفرات الذي طالب بهدايا ماليّة والفلاسفة الآخرون، في حين رفض هو هذه الهدايا. وأخذ يقدّم أوفرات، خلال دفاعه عن نفسه، كمثل على الانتهازيّة والخداع، وراح يذكّر الأمبراطور بموقف أوفرات الذي كان يريد تغيير الحكم إلى حكم ديمقراطيّ، كما أخذ يندّد بخصمه الغائب لكونه يملك ينابيع كاملة من الثراء، وهو جاهز دائمًا للمناقشة في الأسعار، كما يفعل التاجر أو البائع المتجوّل أو جامع الضرائب أو الصرّاف الصغير، وتلك هي شيمته، إذا كان هناك شيء للبيع أو للشراء. وهو يلتصق كالبزّاقة على أبواب ذوي السلطان، وأنّك لتراه واقفًا إزاءها أكثر انتظامًا من أيّ حارس للباب. وكثيرًا ما يطرده البوّابون، كما يطردون الكلاب الشرهة. لكنّه لم يمنح حتّى الآن قلنسًا لأيّ فيلسوف، بل يكدّس ثروته في بيته الخاصّ. وهذا «المصريّ» فقط، المدعوم بأموال الآخرين، يحرّض عليّ بلسان يجب أن يُقطع. هذا بعض ما يتعلّق بأوفرات خلال دفاع أبولونيوس عن نفسه.

ويتابع أبولونيوس الهجوم على أوفرات بدلَ الدفاع عن نفسه فيقول: ومع ذلك اترك أوفرات لك، لأنّك حين تتأكّد من المتملّقين، ستجد الشخص أسوأ ممّا وصفته[2].

وهنا نتوسّع في عرض آراء أبولونيوس في أوفرات، لأنّها تكشف شخصيّة هذا وصناعته الفكريّة، حيث لا نجد أيّة تهمة فلسفيّة أو سلوكيّة شائنة موجّهة إليه. وحين وصفه بالمصريّ، إنّما كان يريد الحطّ من قدره، لأنّ لأبناء صور وصيدا مناعة في الدولة الرومانيّة لم تكن للمصريّين. وإذا كان أوفرات بعث حقًّا مَن يتعقّب أبولونيوس ويسجّل ما يستحقّ الشكوى من ادّعاءاته وشعوذاته، فإنّه يكون فعل خيرًا للناس. إذ إنّ أحد أعمال أبولونيوس التي ينقلها فيلوستراتس هو دعوة أبناء أفسس إيّاه ليشفيهم من طاعون تفشّى بينهم.

(1) *The Life of Apollonius*, Tome II, 6:28-7:9.

(2) *The Life of Apollonius*, Tome II, 8:3, , 12, 14.

فذهب إلى هناك وقال لهم: «اليوم سأوقف هذا المرض فتشجّعوا». وعندئذٍ رأى متسوّلاً رثّ الثياب على باب المعبد، فأمرهم برجمه لأنّه الشيطان الذي ينشر المرض. وقد فعلوا [1]. ويكفي أنّ الأمبراطور هو الذي وجّه إليه الاتّهام شخصيًّا. وهذا ما يدلّ على علوّ شأن أوفرات في الدولة الرومانيّة.

أمّا سكوت أوفرات عن أبولونيوس وعدم نشر أيّة رسالة منه لخصمه، فهو ذاته جواب من رجل رصين، ذي نهج واقعيّ علميّ إلى حدّ ما، لمتخرق كان يستغلّ سذاجة الجماهير لينشر بينهم خرافاته وادّعاءاته في معرفة الغيب وعمل الخوارق، وأمثاله نجدهم في كلّ العصور والمجتمعات.

وينشر الكاتب مجموعة رسائل من أبولونيوس إلى أوفرات تتضمّن مآخذه عليه ونصائحه له. وهي لنا اليوم إضاءة لشخصيّة أوفرات، ننشرها كما وردت بقلم فيلوستراتس، الذي يذكر أوفرات مقرونًا دائمًا باسم صور.

إلى أوفرات

- ١ -

«أمّا بخصوصي أنا، فأنا في غاية الصداقة مع الفلاسفة، ومع السوفسطائيّين، مهما كانوا، أو الكتّاب الصغار، أو أيّ نوع هكذا من التعساء. فأنا لستُ على غاية الصداقة الآن، وبأمر السماء سأكون هكذا في أيّ زمن في المستقبل. ومع أنّ هذا لن ينطبق عليك، إلاّ إذا كنتَ حقًّا تختار أن تكون منهم، فإنّ الكلمات التالية تناسبك تمامًا، وهي: عليك أن تعالج أهواءك وتشفى منها، وتحاول أن تكون فيلسوفًا، ولا تكون غيورًا ممّن هم كذلك، لأنّ الشيخوخة في حالتك غدت قريبة مع الموت».

- ٢ -

«لأنّ الفضيلة تكون بالطبع أو الكسب أو العمل، فإنّ هذه جميعًا تستحقّ القبول. فانظر هل لديك أيّ منها، ولك إمّا أن تقوم بتعليم الحكمة

(١) *The Life of Apollonius*, Tome I, 4:10.

من أجل [illegible] الدين يشاركونك، لأنك أصبحت [illegible] ثروت شأنه (ليعاديوس).

- ٣ -

«لقد زرتَ أنت الأقطار الواقعة بيني وبين إيطاليا، بادئًا من سورية، متجوِّلاً في المدن التي تسمَّى ملكيَّة. ولك صدريَّة فيلسوف في كلّ الأوقات، وخية بيضاء، وما عدا ذلك فلا شيء. والآن كيف جرى أنَّك عدتَ بالبحر ومعك حمولة كبيرة من الفضّة والذهب والأواني، من جميع الأنواع: من ثياب مطرَّزة ومن كلّ أنواع الزينة، عدا عن العجرفة والتفاخر وعدم الرضى؟ فأيَّة حمولة هي هذه، وما هو معنى هذه المشتريات الغريبة؟ فزيمون لم يشترِ إلاَّ الفواكه الجافّة».

- ٤ -

«إنَّك تحتاج القليل إلى خدَّامك، إن كانوا خدَّامًا لفيلسوف فقط. عليك أن لا تفكِّر بشراء أكثر ممَّا تحتاج إليه في الواقع، وبخاصَّة أنَّك تجلب على نفسك سمعة سيِّئة في هذا المجال. ولكن، بما إنَّك ارتكبت مرَّةً الخطأ، فإنَّ الأمر التالي والأفضل الذي عليك أن تسرع إلى عمله بقدر الإمكان، هو أن تعطي بعض ما لديك للآخرين. وسيبقى لك أرض آبائك وأصدقاؤك كلاهما».

- ٥ -

«لم تبقَ هناك حاجة، من الآن وصاعدًا، لأيّ عامل حديقة أو تابع لمدرسته ليطالب بحقّ أن يحصل على أحد خطابات أبيقورس المعنونة «حول اللذّة»، لأنّ المطالبة العبقريَّة تحوَّلت من هناك إلى «الرواق». ولكن، بفعل التناقض، عليك أن تبرز محاضرات كريزيبس ومعتقداته. وهنا دعني أذكر لك مقطعًا من رسالة الأمبراطور يقول فيه: «لقد أخذ أوفرات منّي مالاً مرَّة، ثمّ أخذه مرَّة ثانية. والآن لم يكن أبيقورس ليأخذه قطّ».

في هذه الرسالة، يأخذ عليه اقتناءه الخدم وعمّال الحدائق، ويتَّهمه بالتحوّل عن المدرسة الرواقيَّة التي يعلِّم مبادئها بواسطة مؤلَّفات كريزيبس، أحد عظمائها، إلى المدرسة الأبيقوريَّة المضادَّة لها والتي كان الرواقيّون يصفونها

باللاأخلاقيّة، لكونها كانت تركّز على اللذّات الحسّيّة. وكان أبيقورس يعلّم فلسفته في حديقة منزله، فاشتهرت بذلك، وخلاصتها السلوكيّة أنّ اللذّة هي الغاية الأولى الطبيعيّة للإنسان، وما يعمله هو إمّا للوصول إليها أو للابتعاد عن الألم. وقد شرح أبيقورس هذا المبدء في كتاب منه إلى شخص يُدعى منسي [1]، كما في الرسالتَيْن الثالثة والرابعة أعلاه، يذكر أنّه كان يقيم في سورية، أرض آبائه. وهو الاسم الذي كان يطلقه الرومان على كامل الأراضي التي شملتها الولاية السوريّة، بما فيها مدن الشاطئ اللبنانيّ والفلسطينيّ.

إلى أوفرات

- ٦ -

«سألتُ مؤخّرًا بعض الأثرياء هل هم يتعهّدون بالتنمية مثل هذه المشاعر المريرة. فأجابوا: «وكيف علينا أن نفعل غير ذلك؟» وعندئذٍ سألتهم عن سبب قسوتهم، فلاموا ثراءهم. لكن أنتَ يا فقيري التاعس، لقد جمعتَ ثروتك بالأمس فقط».

- ٧ -

«حالما تصل إلى عايغا برحلتك السريعة، وتفرغ شقّيتك هناك، عليك أن تعود إلى إيطاليا بسرعة، ثانية، حيث عليك، كالعادة، أن تتودّد للمرضى والشيوخ، والعجائز واليتامى والأثرياء، وللشبّان المتأنّقين ميداس وجيتا. فهم يقولون إنّ على التاجر أن ينشر كلّ الأشرعة. ومن جهتي فإنّي أفضّل تنظيف إناء الملح في بيت الإلاهة طاميس».

- ٨ -

«ربّما تكون راغبًا في الحصول على اتّهام صغير لي؟ وأتمنّى أن يخالفك الحظّ في ذلك. وستكون قادرًا على ترداد هذه الشكاوى المبتذلة الواضحة: «أبولونيوس لم يغتسل قطّ». نعم، وماذا أيضًا؟ إنّه لا يفارق بيته، ويحرص على

(1) Diogène Laërce, Tome II, p. 258-269.

لا يعتز قدميه «إنك لا تراه يترك أيّ جزء من جسمه» نعم، لأنه لا يترك شيئاً ما عدا روحه. «إنه يترك شعره طويلاً على رأسه» نعم، وهكذا يعمل اهلّينيّون، لأنه هلّينيّ وليس بربريًا. «إنه يرتدي ثيابًا بيضاء». نعم، لأنه الثوب الأكثر نقاءً، وهو خاصّ بالكهنة. «إنه يمارس التنبؤ بالعيب». نعم، لأنها كثيرة هي الأشياء التي لا نعرفها، وليست هناك طريقة أخرى لاستطلاع أيّ شيء على طريق الحصول. «لكن هذه الممارسات لا تتوافق مع الفلسفة». لا يهمّ، فهي تلائم الآلهة. «وعلاوة على ذلك، إنه يعالج آلام الجسد ويخفّف عذابه». ويمكنك أن توجّه هذا الاتّهام إلى اسكلابيوس، «إنه يأكل وحده». نعم، وباقي الناس يأكلون. «إنه يستعمل كلمات قليلة، وفي مناسبات قليلة». نعم، لأنّ لديه موهبة لجم لسانه تمامًا. «إنه يمتنع عن أكل جميع اللحوم أو أكل أيّ طعام حيوانيّ». هذه بالتأكيد براهين إنسانيّته. إن قلت لي يا أوفرات إنّك وضعت هذه الاعتبارات في لائحة اتّهامك، فيمكنك أن تضيف لها ما يأتي كذلك: «إذا كانت هناك أيّة أمور جارية، فإنّه يأخذ مالاً كما أفعل، وهدايا وترقيات مدنيّة». إن كانت هناك أموال جارية، فإنّه لا يأخذها. «بل، يمكن أن يأخذها من أجل بلده». نعم، لكن ليس هناك بلد لأحد من الناس لا يعرف ماذا لديه».

في هذه الرسالة يفاخر أبولونيوس بكونه هلّينيًا، وهو يشير بذلك إلى أوفرات، وأصله غير الهلّينيّ. كما هو يندّد به، أو أنّه، على الأقلّ، يذكر بأنّه حصل على ترقيات مدنيّة وأموال طائلة، وهو لم يقدّمها لبلده كما كان ليفعل هو، لو أنّه حصل عليها.

ينشر فيلوستراتس رسائل إلى أشخاص آخرين من فلاسفة وحكّام سياسيّين. وقد جعل أرقامًا لهذه الرسائل، تفصل بينها وبين الرسائل التي استأنف نشرها والموجّهة إلى أوفرات. ومن بين الرسائل الموجّهة إلى الحكّام نجد رسالة موجّهة إلى رئيس مجلس الحكم في قيصريّة في فلسطين، يذكّره فيها بأنّها المدينة الأكبر هناك. وهذه الإشارة تجعلنا نرجّح أنّ المدينة التي كان يقيم فيها أوفرات، والتي ذكرها بلينس الأصغر في رسالته هي قيصريّة مركز الدولة الرومانيّة في المنطقة، كما أنّ عايفا التي ذكرها أبولونيوس في رسالة رقم ٧ كميناء يفرّغ فيها أوفرات حمولة مركبه الآتي من إيطاليا، لا بدّ أن تكون بين المواقع

المندثرة والمهملة على الشاطئ القريب.

ونعود إلى أوفرات بالرسالة التالية من أبولونيوس

إلى أوفرات

- ١٤ -

«لقد سألني أناس كثيرون، وفي مناسبات عديدة، عن سبب عدم إرسالي مطلقًا إلى إيطاليا. وإذا كنتُ قد أرسلوني إليها، فلماذا لم أذهب إلى هناك مثلك ومثل العديد من الآخرين؟ والآن لا أردّ بأيّ جواب عن السؤال الأوّل لئلاّ يظنّ البعض أنّي أعرف السبب، في حين أنّي لا أرغب في معرفته. أمّا بخصوص الثاني، فلِمَ أحتاج للقول أكثر من أنّي أفضّل أن يرسلوني من أن أذهب؟ والوداع».

يحسّ قارئ هذه الرسالة أنّ أبولونيوس كان يحسد أوفرات على حظوته لدى الولاة الرومان. وهو يطلب وساطته لديهم ليرسلوه مبعوثًا إلى روما، كما كانوا يرسلون أوفرات. هذا يحدث رغم العداء المستحكم بينهما، من جانب أبولونيوس على الأقلّ، حيث ليس هناك ما يؤكّد أنّ الشكاوى عليه كانت تُرسَل من قِبَل أوفرات، كما لم يجبه أوفرات على رسائله، استهانةً به على الأرجح.

- ١٥ -

إلى أوفرات

«كان أفلاطون يقول إنّ الفضيلة الحقيقيّة لا تعترف بسيادة أحد عليها. ولنفترض أنّ إنسانًا ما يفشل باحترام هذا القول، ويتهج بذلك. وبدلاً من العمل بموجبه، يبيع نفسه بربح بخس. فأقول إنّه يجعل على نفسه عددًا من الأسياد».

- ١٦ -

«يجب ألّا تظن أنّه من واجبك أن تدعو الفلاسفة الذين يتبعون فيثاغوراس سحرة. ومثلهم الذين يتبعون أورفيوس. ومن جهتي، أظنّ أنّ أولئك الذين لا يهمّ مَن يتبعون، يجب أن يدعوا سحرة، إذا تمّ تحديدهم بأنّهم إلهيّون وأنّهم رجال فقط».

- ١٧ -

«إنّ العُرس يطلقون تسمية «مجوس» على الكائنات الإلهيّة. فالمجوسيّ هو إمّا أن يكون عندئذٍ متعبّدًا للإله، أو أنّه إلهيّ بطبيعته. حسنًا، إنّك لست مجوسيًّا، وإنّما أنت إنسان بدون إله».

- ١٨ -

«إعتاد هيراقليتس الفيلسوف الطبيعيّ أن يقول إنّ الإنسان غير عقلانيّ بطبيعته. حسنًا، إن كان هذا حقًّا، فليخبُرْ عندئذٍ كلّ إنسان وجهه الذي اشتهر به عبثًا وبدون طائل».

- ٥٠ -

«حتّى إنّ فيثاغوراس الأكثر حكمة ينتسب إلى جماعة روحيّة. أمّا أنت، فيبدو لي أنّك لا تزال بعيدًا تمامًا عن الفلسفة وعن العلم الصحيح، أو أنّك لن تستطيع الإساءة إلى ذلك الرجل العظيم، أو الاستمرار بكره بعض الذين يتبعونه. فعليك أن تتحوّل إلى أمر آخر الآن، لأنّك «فقدتَ مفتاحك» في الفلسفة، أو «أنّك ألقيت به بعيدًا» أفضل من بندارس، عندما صوّب على متلاوس في مقطع خرق القسم.

- ٥١ -

«هناك مَن يلومونك لأخذك مالاً من الأمبراطور. وليس في الأمر هذا شيء عبثيّ، فأنت أخذت مكافآت كثيرة على فلسفتك، وفي مناسبات متعدّدة، وعلى نطاق واسع، ومن أشخاص كثيرين، ومن أناس جعلتهم يعتقدون بأنّك فيلسوف».

- ٥٢ -

«إن ناقش أحد الناس فيثاغوريًا وسأل ما هي المواهب وماذا يمكنه أن يعدِّد له منها، أجيب بنفسي كما يلي: عليه أن يحصِّل علم التشريع، والهندسة، والفلك، والرياضيّات، ومعرفة الألحان والموسيقى، وفنّ الطبيب، والتنبُّؤ كالإله بكلّ فروعه، والبقاء على أفضل حال من الشهامة، وعظمة النفس، والهيبة، والإخلاص، والاحترام، والمعرفة بالآلهة وليس الرأي فيها فقط، مع معرفة مباشرة للكائنات الروحيّة، لا إيمانًا بها وحسب، والصداقة مع الفريقَيْن، واستقلال النفس والمواظبة، والاقتصاد في الإنفاق، والحدّ من احتياجاته، وسرعة البديهة، والسرعة بالحركة، والسرعة بالتنفُّس، واللون الممتاز، والصحّة، والشجاعة والخلود. أمّا عنك، يا أوفرات، فماذا يستطيع رفاقك أن يحفظوا ممّا حصلوا عليه؟ بالتأكيد لا أكثر من الامتياز الذي تمتلكه بذاتك»[1].

- ٦٠ -

براكسيتلس من خالقيس هو رجل مجنون. وقف على بابي في كورنثيا مع صديقك وكان بيده سيف. فما هو سبب محاولته قتلي؟ فأنا لم أطرد ثيرانك، لأنّه، بين فلسفتك وفلسفتي، «تفصل جبال ظليلة وبحر عميق».

- ٧٤ -

إلى الرواقيِّين

باسوس فتى جميل، لكنّه جائع، مع أنّ لدى مولاه مالاً كثيرًا. وهكذا فرّ إلى ميغارا مع أحد المدعوِّين عشّاقه. وهذا كان سمسارًا له في الوقت ذاته. وكلاهما كانا بحاجة إلى المال من أجل الرحلة وللطعام. وعندئذٍ ذهبا إلى سورية. وهناك لقي الفتى الجميل ترحيبًا حارًّا من أوفرات ومن كلّ مَن هم على شاكلة أوفرات، يحتاجون إلى آخر نتاج الجمال ويكونون مستعدِّين، مثل ذلك الحكيم الذي اختار لنفسه هذا المثل الشاذّ.

(1) Philostratus, *The Life of Apollonius* (The Epistles of Apollonius of Tyana) annexed to vol II. p. 407.

- ٧٩ -

إلى أوفرات

إنَّ النفس التي لا تتحمّل مشقّة ترويض الجسد على الاكتفاء الدانيّ لا تكون قادرة على جعل نفسها ترضى بالقليل..

- ٨٠ -

إنَّ رجال البصيرة والقيادة يستعملون كلمات قليلة، ولو أنَّ الثرثارين يحسّون بالإزعاج الذي يُحدثونه لكفّوا عن الثرثرة.

وهكذا يُنهي فيلوستراتس وصف العلاقة بين أوفرات وأبولونيوس من موقف الفريق، لا من موقف المراقب المحايد. ومع ذلك، فإنَّ ما حفظه لنا من مواقف أوفرات، وإن في معرض اتّهامه أحيانًا، يعطي فكرة واضحة عن شخصيّة هذا الشرقيّ الصوريّ الرواقيّ المؤمن بالحرّيّة والديمقراطيّة، والتمتُّع بجرأة لم تُنسب لأحد قبله من الفلاسفة في وجه أمبراطور عسكريّ حديث العهد بالسلطة.

ومن رسالة أبولونيوس رقم ٥ إليه نعرف أنّه كان رواقيًّا ويتمي إلى كريزيبس الذي جدَّد في الفلسفة الرواقيّة ووسّع مفاهيمها، وكان أكثر الفلاسفة الرواقيّين إنتاجًا وإبداعًا. وهو مَن أدخل أداة الشرط «إذا» في المقدّمات المنطقيّة. كما كان يرى أنَّ طبيعتنا هي جزء من الطبيعة الكونيّة العامّة، وأنَّ هناك إلهًا ينظّم الكلّ ويرعاه بتدبيره [١].

والملاحظة الأخيرة الجديرة بالاهتمام، حول هويّة أوفرات ونسبه إلى مدينة صور، هي أنَّ الكاتب فيلوستراتس نشر مؤلّفه عن حياة أبولونيوس في هذه المدينة ذاتها. وقد كان لاجئًا إليها بعد موت الأمبراطورة جوليا دُمْنا التي كانت أوعزت إليه بكتابة الكتاب[٢]. وهذا الموضوع يحسم كلّ شكّ في نسبة فيلسوفنا، إذ إنّه من غير المقبول أن يعطي الكاتب هويّة جديدة لشخص هو معارض له، وأن تكون هذه الهويّة لمدينة يعيش لاجئًا بين أهلها. وإنّما المقبول منطقيًّا هو أنَّ نسبة أوفرات كانت معروفة ومسلَّمًا بها في مدينة حيرام العظيمة.

(١) Diogène Laërce, Tome II, p. 80.

(٢) Philostrates and Eunapius, *The Lives of the Sophists*, p. XI.